الفن والجمال في القرآن

بقلم الأستاذ مصطفى شاهين المحامى

فى لحظة من لحظات التجلى التى يرق فيها الحجاب بين الله والإنسان ، جلست مع القرآن جلسة فنان . قدمه على الأرض ورأسه فى السماء ينشد المتعة الفنية من أعلى فلك وأرفع سبيل .

فما زلت بين سبحاتى وتأملاتى حتى وجدتنى أطل على أفق جديد من آفاق القرآن . فتذكرت الحديث الشريف « القرآن جديد لا يبلى »

ومن هذا الفتح . وقفت على أن السر فى عظمة القرآن ليس فى إعجاز الفاظه ، أو بلاغة معانيه ، فحسب ، وإنما السر يكمن فيما وراء ذلك . خلف أستار رقيقة نسجتها يد الفنان الأعظم . هناك حيث يختبىء عنصر (الفن والجمال) وسط حواشيه الرهيفة . وفى محيطه الشفاف . بعيداً عن ضجيج اللغويين وجدل المفسرين . وهذا العنصر الكريم ، هو أرفع متاع يقدمه القرآن للنفس المؤمنة ، والروح الملهمة ، والذوق السليم .

وما أيسر أن يبحث الفنان عن مفاتن الجمال . دون أن يخدش ما ينبغى للدين من جلال . فيأخذ من الفن رقته . ويترك للقرآن روعته . وبذلك يكون الحديث عن الفن والجمال نوعاً من عبادة الله والتسبيح بمآثر القرآن ، حتى يؤمن الذى لا يؤمن . أن الله قد جعل من كتابه ، روضة يانعة وموسوعة جامعة وتحفة فنية رائعة ، ترضى ذوق الشعراء والفنانين ، كما تقضى حاجة العابدين المتبتلين .

ذلك أن القرآن قد جمع فأوعى . حين جمع بين الفن والأدب فى بحره المتدفق الغزير . فاتخذ من (الموسيقى والتصوير) وسائل أداء وتعبير ، وفنون استهواء وتأثير ، وما ذلك على الله بكثير .

وما كانت هذه الظواهر فى القرآن فلتات . وإنما هى لفتات ، فيها سر الله مستتر ، وأصل الفن مستقر وشباب الأسلوب متجدد مستمر .

فقد راعنى أسلوب القرآن فى الإخراج والعرض فهو يصوغ فكرته الضخمة ، وعبارته الفخمة ، فى قوالب فنية ساحرة تهز جوانب النفس . ويعرض التعبير فى موكب حى من الفن والجمال ، بحيث تسمع له الأذن نسقاً موسيقيا متجاوب الألحان . وتتملى منه العين لوحات متجانسة الألوان .

والموسيقى فى القرآن عمل فنى ضخم يبهر المشتغلين بهذا الفن . لما ينطوى عليه من نغم علوى أصيل . تستريح له الأذن الموسيقية ، ولو كانت أذن كافر . ولذلك حذر المشركون بعضهم منه فقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون .

ذكرت ذلك وأنا أقرأ السور القصار ، فكنت أحار : فواصل تمسك النغم فتضبطه ، وقرارات موسيقية تحفظ الوزن وتربطه ، وموازين توقيعية أشد حساسية من ميزان الذهب . وكلمات لها جرس أرق على طبلة الأذن من حفيف النسيم ، متى أريد

بها التعبير عن جو ناعم منسجم كنمارق وأرائك، وأخرى أشد على الأذن من قصف الرعود حسبما يتطلب الحال، كالطاغوت والطامة.

حقا أن القرآن هو صوت السماء الخالد يرن فى سمع الإنسانية دواما.

أما التصوير فى القرآن فهو فن يتأدى بالعبارات والكلمات بالضبط كما يتأدى بالريشة والألوان والأدوات. لمست ذلك وأنا أقرأ وصف السماء مثلا فى قوله:

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح)

وكذلك وصفه لموكب الإيمان فى قوله:

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم)

استحضرت هذه المناظر فى مخيلتى. فأدركت حقيقة أن الله جميل يحب الجمال. وأنه سبحانه يستهوى النفس للقرآن بالجمال. لأنه فاطرها على حب الجمال.

فمثلا كنت أتلو سورة الرحمن فكنت أعجب لهذه المنظومات التى أنفق فيها القرآن من الفن ما أنفق وحذق فدقق ونمق فنسق، حتى جاءت الآيات عبارة عن لمسات لريشة فنان مبدعة، ويد مصورة رائعة هى يد الفنان الأعظم الذى أحسن كل شى صنعا، والذى نسب التصوير لذاته، واتخذه اسما له وصفة من صفاته فقال:

(هو الخالق البارىء... المصور). لأنه إنما يصور الجمال لعباده فى القرآن تارة وعلى الطبيعة تارة، لينعموا بمتعته. ويشهدوا لصنعه، ويسبحوا بحمده بكرة وأصيلا.

ومن عجب أننى لم أبلغ هذه الأجواء وتلك الاصداء إلا وأنا صائم تتلبسنى روحانية هذا الشهر الفيلسوف الذى يرهف إحساس المؤمن حتى يرى بغير عينيه ويسمع بغير أذنيه، كما كنت أرى وأسمع وأنا مندمج فى تأملات القرآن لفرط دقة تصويره. كنت أرى الجنة من دقة وصفها — وأنا بعد فى الدنيا، وكنت أتمثل الجحيم من آيات الجحيم، مشهدا حاضرا أمام ناظرى فأجفل مخافة أن تلفح النار وجهى

وكنت أقرأ (كلا اذا دكت الأرض دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجىء يومئذ بجهنم) فأسمع للألفاظ دويا مفزعا وطنينا مروعا

وهكذا يشرق خيال المؤمن فيسمو على خيال الشعراء الذين ينسجون قروضا وأوهاما، لأنه خيال الحقيقة الذى يطير به المؤمن فى سماء القرآن، عسى أن يلحق بمعانيه المحلقة فى أعلى ملكوت

بحوث فنية

القرابـــة بين المقامـات

للأستـاد محمد فخرى

فى الكتب الموسيقية الحديثة التأليف أن الاتفاق فى المستقر بين المقامات كاف للتقارب بينها فالنهاوند والحجازكار والحجازكار كردى والنواثر والنكريز مثلا تعتبر أقارب لمقام الراست لاتفاقهامعه فى المستقر وهذه نظرية لم يسبق لى أن اطلعت عليها فى غير هذه الكتب . ونظرا لما أراه من خلاف كبير جدا بين الراست والمقامات السالفة الذكر فى الدليل والتكوين والطابع واللون والمسافات مما يجعل القرابة بينهـا بعيدة جدا أبديت رأيي هذا لاحد الاساتذة ممن ذكـروا هذه النظريـــة فى كتبهم فأجابنى بمايـأتى بالحرف الواحد :

« الأقارب ـ باختصار ألخصها لحضرتكم فيما يلى علما بأن جميع الملحنين والموسيقيين فى مصر أقروا ذلك واعجبوا بتلك القاعدة واعترفوا بها ، وخذ مثلا قاطعا لا يقبل جـدلا بشرف راست عاصم بك الخانة الأولى راست والثانية حجازكار وهو مقام يستقر على الراست ثم فى الخانة الأولى نؤاثر وهو ايضا مقام يستقر على درجة الراست »

إذن فالقاعدة العلمية للقرابة بين المقامات فى الموسيقى الشرقية هى كما قال حضرة الأستاذ اعجاب الموسيقيين فى مصر بنظرية الاتفاق فى المستقر وإقرارهم واستحسانهم لها وتلك التغييرات التى أتى بها عاصم بك فى بشرفه الراست

الموسيقى الغربية تشترط اتفاق المقام مع قريبه فى الدليل وان يعلو أو يسفل عنه بمقدار ثالثة صغيرة. هذا فى الموسيقى الغربية أما فى الموسيقى الشرقية فالقاعدة العلمية التى يقررها الاستاذ الفاضل هى إعجاب الموسيقيين وبشرف عاصم بك الراست .

فى رأيى أن الاتفاق فى المستقر بين المقامات مع بعدما بينها فى التكوين والطابع واللون والمسافات لا يكفى مطلقا لوجود القرابة ... فهل أجد من حضرات الأساتذة من يتكرم بإقناعى بدليل علمى يكون أقوى حجة من دليل الأستاذ السالف الذكر ؟